جدليّة الإسلام والمعاصرة

محمد يوسف عدس

يتساءل فلسوف الإسلام "علي عزت بيجوفيتش" ما مفهوم المعاصرة ..؟ هل هي مجموعة الأفكار والأهداف التي تحرك عالما ما ؟ ، أم هي واقع هذا العالم الفعلي لحظة التأمل فيه، أم هي الأمران معًا..!؟

ندرك من تحليلات بيجوفيتش أن مصطلح "المعاصرة" يجمع بين أشياء متناقضة .. فهو من جهة : ثورة تكنولوجية مستمرة مصحوبة بزيادة في رخاء المجتمع، وانتشار التعليم، والكلمة المكتوبة القائمة على عالمية الأفكار وسلميتها وإنسانيتها .. ومن جهة أخرى تنطوي المعاصرة - كما نراها- على صراع الأفكار، وعلى مئات الملايين من الجوعى على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، ولا شك أن موسيقى (البوب) الصاخبة المجنونة، والعبثية التي أصابت الأدب والفكر جزء من هذه المعاصرة ..!

ونستقر -في النهاية مع بيجوفيتش- على أن العالم الذي نطلق عليه صفة المعاصرة، ليس معاصرا في حقيقة أمره .. فهو يفتقد إلى مقاييس عامة يُرجع إليها .. ولذلك يقترح أن نترك مصطلح المعاصرة على حاله ، ولا نسعى إلى تحديد مفهومه تحديدًا مثاليًّا لأنه في نهاية المطاف كما يقول : ليس سوى مجموعة مختلطة من الحقائق والأوهام التي يتم الترويج لها من قِبَلِ أصحابها .. ويقترح علينا – بدلاً من ذلك – أن نحاول الإجابة على السؤال الذي يوحي به عنوان المقال وهو: هل جعل التطور والزمن الإسلام غير صالح..؟ بمعنى آخر: هل يسير الإسلام مع الزمن .. أم أن الزمن قد خلّف الإسلام وراءه ومضى في سبيله ..؟!

وهنا يجب أن نتنبّه إلى أنه لا يمكن الحديث عن معاصرة الإسلام بشكل عام ، ولكن يمكن التحدث عن حكم معين من الأحكام الإسلامية أهو معاصر أم لا..؟ ولِكَيْ نكون أكثر واقعية ووضوحًا- فلْنسأل على وجه التحديد: هل هناك مبدأ من المبادئ الإسلامية يتعارض صراحةً مع احتياجات الإنسان وتطور المجتمع الإنساني ..؟

ولنأخذ مثلا "الوحدانية" وهي قمة مبادئه وعموده الفقري.. يقول علي عزت : "شهادة (أن لا إله إلا الله) هي أساس الإسلام، يتعبد بنطقها كل مسلم عدة مرات في صلاته اليومية، إنها تعني البشارة بقيام ثورة حقيقية لتحرير الإنسان من طغيان جميع الآلهة المزيفة التي تسلطت على حياته ، كما تعني إسقاط حق الكهنة ورجال الدين ورؤساء القبائل والأمراء والنبلاء، وجميع أصحاب السلطة في التحكم في أرواح الناس وحياتهم، وعَزْوِ هذه السلطة إلى الله وحده .. لقد قضى القرآن بهذه الشهادة على الخضوع لأي شيء غير الله".

كانت هذه الآلهة المزيفة في الماضي تأتي على صورة أصنام أو ملوك أو فراعنة، ثم عرفناها حديثا في صورة آباء الوطن ومنقذيه، وفي صورة الزعيم الأوحد والرئيس الحكيم المعصوم من الخطأ .. كل هؤلاء يتظاهرون بأن الفضل يعود إليهم وحدهم في كل ما يتمتع

به الناس [من تحتهم] من حرية ورفاهية، والحقيقة أنه لا يوجد رخاء ولا حرية بل إدعاء وسراب كاذب ..!!
علينا أن نتساءل الآن : في هذا العالم المكتظ بآلهة كاذبة هل يبقى من دور لرسالة الإسلام..؟ هذه الرسالة التي رفعت شعار عدم إلوهية البشر وأن الإنسان لا يمكن أن يرقى إلى هذه المنزلة، فهو مخلوق ضعيف يكفيه شرفا أن يكافح من أجل أن يصبح إنسانا حقيقيًّا بدلا من سعيه العقيم لكي يجعل من نفسه إلهاً كاذبا ..؟ !

يريدنا على عزت بيجوفيتش أن نستنتج لأنفسنا في النهاية: إن هذا المبدأ الإسلامي الداعي إلى تحرير الإنسان من الآلهة الكاذبة سيظل مبدأ معاصرا لا يعفو عليه الزمن أبد الدهر ...

أما المبدأ الإسلامي الثاني أو القضية الثانية التي ستبقى عصرية إلى الأبد فهي قضية المساواة والإخاء بين الناس جميعا ، فقد ورد هذا المبدأ واضحاً محدداً في آيات كثيرة في القرآن، يسردها علي عزت واحدة بعد الأخرى، مما يؤكد لنا أن هذا المبدأ القرآني في المساواة لم يعد مجرد نظرية أو شعارًا بل أصبح جزءًا لا يتجزأ من الشعور والممارسة في واقع الحياة اليومية للأمة المسلمة ، وفي ضوء هذا المبدأ إنتفت الفوارق اللّونية والجنسية والقومية، كما إنتفت فوارق النّسب والمنزلة الاجتماعية وحيازة الثروة ...

في هذا المناخ الإسلامي لا يحاول أحد العمل على إبراز وتأكيد هذه المساواة لأن الجميع قد أصبحوا يرونها أمرا فطرّيًّا طبيعيًّا .. وفي أجزاء أخرى من العالم التي تحترم مبدأ المساواة بين الناس اكتُسب هذا المبدأ عن طريق التعليم والتربية حتى أصبح عادة أو مظهرًا من مظاهر السلوك .. والفرق هنا هو أن هذا المبدأ نشأ وسرى في العالم الإسلامي عن صدق مطلق لا كذب فيه ولا تكلّف ، يتنفسه المسلمون مع الهواء ويتلقّونه جيلا بعد جيل كجزء من فهمهم للعالم والتفاعل معه ..

ثم يسأل : هل استطاع مفهوم المساواة بين الناس الهيمنة بنفس الدرجة والقدر على الرأي العام وعلى روح جميع الناس في العالم ..؟
يجيب علي عزت : " لنترك جانبا الأقطار المتخلفة في العالم لأنها – من جهة الحديث عن المعاصرة – لا تمثل شيئاً يذكر، ولنتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية وهي أكثر الدول المعاصرة تقدما ، فقانون الحقوق المدنية ومبدأ المساواة بين البيض والسود في الحياة العامة لم يصدر إلا سنة ١٩٦٥ م .. ومع ذلك لا تزال شريحة كبيرة من الأمريكيين تعارض أو تتحفظ على القانون إلى اليوم .. أما من ناحية التطبيق فهناك مقاومة دفينة لهذه المساواة ، حتى أن دعاة حقوق الإنسان من السود دُبرت لقتلهم مؤامرات نُسبت إلى المخابرات الأمريكية .. بهذه الطريقة قتل مالكوم إكس ومارتن لوثركنج ... ولا تزال انفجارات السود تنطلق في أمريكا من وقت لآخر احتجاجا على المعاملة السيئة والنظرة الاستعلائية من السلطات البيضاء .. وقصة التمييز العنصري تجاه السود في جنوب أفريقيا وفي روديسيا قصة مشهورة .. وفي الأربعينيات من القرن العشرين كان العلماء الألمان يحاولون تقديم أدلة علمية تثبت عدم المساواة بين الناس.

وأضـيف: أن التفرقة العنصـرية لا تتوقف على التمييز في لون البشـرة فحسـب بل تظهر أعمق وأعمق في التفرقة القومية والطبقية والفكرية والسياسية والدينية ، ولا تزال توجد إلى اليوم دول يقوم نظـامهـا على التمييز العنصــري والتطهير العرقي والـديني مثـل إســرائيل".. وتنتكس أمريكا اكبر انتكاســة في تاريخها بوصــول دونالد ترّمْب إلى البيت الأبيض.. وموقفه العنصــري من المســلمين والملوّنين قد أوشــك أن تصــدر به قوانين وإجراءات واجبة التنفيذ..!

وهذا الانتكاس يعيد إلى الأذهان حرب الإبادة الجماعية التي شـنها الصــرب على مسـلمي البوسنة والهرسك وعلى مسلمي كوسوفا بعد ذلك .. وما لا يعرفه الكثير من الناس أن أن أفكارًا عنصـرية كانت كامنة في القومية الصـربية أكّدتها "بليانا بلافسـيتش" المرأة التي شغلت منصب رئيس جمهورية صرب البوسنة بعد كراجيتش ، وكانت من قبل ذلك تدرّس علم الأحياء في جامعة سـراييفو، ولأنها من أشـد العنصـريين غلوًّا دأبت في كتاباتها على تحريض الصـرب ضـد مسـلمي البوسـنة زاعمة أن جينات المسـلمين البوشـناق -وهم سـلافيون مثلها- قد بدأت تتغير بعد اعتناقهم الإســلام حتى تحوّلوا على مر الزمن إلى عنصر منحط ..!!

يتساءل علي عزت بمرارة واستنكار: هل بقى للإسلام دور في عالم ما زالت مساواة الناس فيه حلماً بعيد المنال ، وما زالت التفرقة بين المخلوقات البشــرية مظهراً يصــدم أعيننا وعقولنا كل يوم ..؟ وهل المجتمع المعاصـر في صـورته هذه قد تجاوز مبدأ المسـاواة في الإســلام ، أم أنـه على نقيض ذلـك تمـاما ، مجتمع رجعي يتقدمـه الإســلام بمراحل ومراحل..؟؟ !!

ثم يقول: "في معرض الحديث عن المعاصــرة يربط الناس بها التقدم والثقافة والتحرر من الخرافة والأحكام المسبقة ، كما يلحقون بها الإنسانية والتسامح .. ولكننا إذا نظرنا إلى العالم المعاصر نظرة فاحصة لوجدناه في حقيقة الأمر عالم رجعي إلى أبعد حدود الرجعية. عالم يطفح بمشـكلات نفسـية واجتماعية معقدة بل مسـتعصـية على الحلول ، رغم التقدم الهائل في التكنولوجيا .. ويناقش علي عزت في هذا المجال حقائق إحصــائية عن أكثر المجتمعات الغربية تقدما .. تكشـف عن اسـتفحال مشـكلات الطلاق التي بلغت ٥٠% من حالات الزواج في بعض المناطق ، وارتفاع معدلات الجرائم بين الأحداث بنفس النسـبـة .. ناهيك عن جرائم الإدمان على المخدرات وتفشّــي حالات الانهيار العصــبي وجرائم القتل والسّطو المسلح ...

ويتســاءل: هل يوجد من أمل في قدرة الحضــارة الغربية المتقدمة وما حققته من زيادة في التعليم وتحسّن في الأحوال المادية ومستوى المعيشة ، على وضع حد لهذه المشكلات التي لا نـهاية لها ..؟

وإجـابـة علي عزت القـاطعة أنـه "لا أمـل مـا دامـت هذه التقـدّمـات خـارج إطـار الـدين والأخلاق" ...

فهل بقيت هناك كلمة يمكن أن يقولها الإسلام لمثل هذه المجتمعات الرجعية التعيسة..؟

يعرض علينا علي عزت -إجابةً على هذا الســؤال- واحداً وثلاثين آية من القرآن الكريم تخاطب العقل والوجدان الإنســاني أبلغ خطاب ، تتناول هذه المعضـلات من جذورها فتهز أعماق الضمير الإنساني وتفتح أمام العقل والقلب آفاقاً فسيحة للتخلص من هذه الشرو..
يقول: "يمكننا مواصـلة سرد آيات قرآنية رائعة في هذا المجال ولكني أريد أن أسأل: ألا تعطيكم هذه الآيات انطباع المعاصــرة ..؟ .. هذه الآيات كانت تتحدث منذ أكثر من ألف عام عن مشــكلات الإنســان والمجتمع التي نعانيها الآن.. ألا يكفي هذا دليلا على المعاصــرة الكامنة فى هذا الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..؟!

ينتقل بيجوفيتش إلى نقطة أخرى يعرض علينا فيها نماذج من المعاصــرة لا يمكن أن يجاريها الإسلام ويقول: هل من واجبنا عندئذ الإقرار بعدم معاصرة الإسلام فيها ..؟

في هذا المجال يذكر دولة معاصــرة تقول عن نفســها أنها متقدمة، ولا يحدد اســمها[كان يقصد يوغسلافيا الشيوعية] التي كانت تضم البوسنة في وقت من الأوقات يقول: في هذه الدولة تطارد السلطات الناس بسبب عقيدتهم، والسبب أن هناك عقيدة رسمية للدولة من يتجرأ على اعتناق عقيدة مخالفة لها فإن مصــيره الســجن لا محالة، حيث يؤكد بعضــهم (يقصـد الماركسـيين) أن التقدم يمضـي نحو التوافق والتماثل أي نحو تقييد اسـتقلال الفكر والشـخصية وبالتالي قمع الحرية الإنسـانية، فإذا اتخذنا هذا الموقف مقياسـا للإسـلام فلابد أن نحكم عليه بأنه دين رجعي غير عصـري .. فقد أعلن الإسـلام مبدأ الحرية الدينية : (لا إكراه في الدين) ومن ثم ساند حرية الاعتقاد وطبّق هذا المبدأ في حياة الناس والتزم به..
وأقرّ التنوّع بين الشــعوب والقبائل والأفراد والألوان واللغات والأفكار .. و أنكر أن يكون هذا التنوع مصــدر تصــارع أو تمايز عنصــري وإنما مدعاة للتعارف والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

النموذج الثاني يتصل بمشـكلة المخدرات والمسكرات التي يحرّمها الإسـلام تحريماً قاطعا.
ففي فرنسـا – وهي مثال للدولة العصـرية المتقدمة – يسـتهلك الناس أكثر من بليوني لتر من الخمور في العام ، وتنتج مصانع الخمور أكثر من خمسمائة نوع .. وهناك ما يسمونه ثقافة تعاطى الخمور ..! ومن علامة رقي الطبقة التي ينتمي إليها الشخص أن يكون على معرفة بأكبر عدد من أسماء الخمور .. وأن يتذوّقها ويكون له رأي شخصـي في مذاقها .. ويســتطيع أن يتحدث عن الفروق الدقيقة في نكهتها .. أما المســلم الملتزم فهو لا يتناول الخمر ولا يعرف أســمـاءها ولذلك فهو جاهل ويبدو بربريًّا متخلفا في هذا المجتمع المعاصر..!!
يكشــف لنا علي عزت عن موقف متناقض للإنســان المعاصــر حول هذه القضـية بالذات حيث يقول: هذا الإنسـان المعاصر شديد الغرابة ..! تستغرقه الوظيفة التي يؤديها فتعميه عن بقية الوظائف الأخرى .. فهو من ناحية يطوّر صناعة الخمر ويزيد من إنتاجها ويحسّن في أنواعها ويُعنى بجودتها ، وفي وظيفة أخرى يحاول أن يطبق بكل دقة الأساليب العلمية

في اتجاه معاكس لإثبات أضـرار الخمر، ويحذر من أخطارها، وسـتقرأ لأشـخاص من هذا الفريق أرقاماً مخيفة عن زيادة أعداد مدمني الخمور، وأعداد المعاقين من جراء تناولها، وسـتعرف منهم معلومات مؤكدة أن ٥٠% من الجرائم وحوادث المرور ناتجة من تعاطي الخمور .. !!

ويعلّق "علي عزت" على هذا قائلا : " إن هذا الموقف المتناقض إذا كان يدل على شيء فهو يدل على سـخف الإنسـان المعاصـر .. هذا الإنسـان لم يعد يحيا حياة حقيقية وإنما هو يؤدي بعض وظائف الإنسـان فحسـب .. ويقوم بأدوار مختلفة بل متناقضـة باختلاف المواقف دون أن يشعر أدنى شعور بتناقضه .."

وينتهي إلى هـذه النتيجـة: "إذا نظرنـا إلى السـلطـان المطلق للخمور على المجتمعـات المعاصرة فجيب أن نقرّ بأن الإسلام من هذه الناحية رجعي وغير معاصر"..!

ومن ناحية أخرى إذا تذكرنا المحاولات التي قامت بها بعض الدول لتحرير مجتمعاتها من سـطوة الخمر، إبتداءً بأكثر الدول تقدما وهي الولايات المتحدة التي حرمت صـناعة الخمر ونقلها تحريما مطلقًا خلال ثلاثينيات القرن العشـرين، وهي تجربة باءت بالفشـل الذريع .. أو محاولة المنع الجزئي للخمر في الدول الاسـكنديناڤية .. إلى التحديد الزمني والعمري لتناول الخمور في دول غربية أخرى .. إذا تذكرنا كل هذه المحاولات الفاشـلـة لأدركنا أن لدينا مبررات كثيرة للجزم بأن الإسـلام بأحكامه وتأثيره في المجتمعات التي اعتنقته قد سبق العالم المعاصر بقرون .. ولتبيّن لنا أن العالم المعاصر في قضية الخمر ليس معاصرا بأي حال .. بل رجعيّ متخلّف وفاقد للإرادة ..!!

وهناك أمثلة أخرى على هذه الرجعية : فإذا تناولنا بالدراسـة الحقائق والأرقام التي تتصل بالإنفاق السـفيه على مواد التجميل التي تصـل إلى عدة بلايين الدولارات، لوجدنا أن هذه المبالغ تكفي لإطعام ما يزيد على سبعمائة مليون إنسان جائع في هذا العالم ...

يقول علي عزت : إذا كانت هذه هي المعاصـرة (كما يفهمها ويتقبّلها الكثيرون) فإن الإسـلام قياسـا عليها غير معاصـر .. لأن روح الإسـلام تتطلب البسـاطة والتواضـع والتضـامن ، ويحرّم الإسـلام الترف السـفيه .. ويفرض حقوقاً للفقراء في أموال الأغنياء، فالإسلام يرى في استفحال الترف والبذخ وسط الفقر والبؤس شر من أكبر الشرور ويعتبر ذلك من أخطر عوامل تدمير المجتمعات وتمزيق وحدتها .

وهذا عند علي عزت وعند كل الحكماء والمصـلحين الحقيقيين معيار دقيق لصـلاحية أى نظام .. ومقياس للقيم .. وللموقف الأخلاقي والاجتماعي الذي يمثله هذا النظام .. ومن حق النـاس أن يقبلوا أو يرفضـوا هذا النظام أو ذاك طبقا لتوافقه أو عدم توافقه مع هذه القيم والمعايير .

فهل اتضح لنا الآن أن مصطلح المعاصرة مصطلح هلاميّ ينطوى على تناقضات .. وبالتالى لايمكن إعتباه قيمة ولايمكن اتخاذه معيارًا لقياس أى شيء .. ولا يمكن الحكم على شيء بالقبول أو الرفض إذا وُصف فقط بأنه معاصر أو غير معاصر ...!!

(نُشِرَ المقال في جريدة الشعب بتاريخ ١٢مارس ٢٠١٧م)